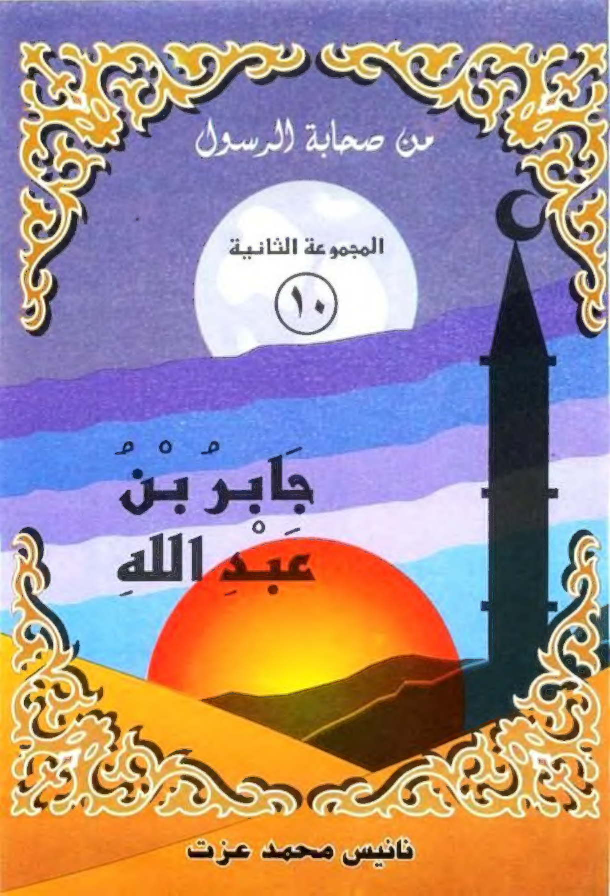


من صحابة الرسول
المجموعة الثانية
١٠
جَابِرُ بْنُ
عَبْدِ اللهِ
نانيس محمد عزت

# جابرُ بنُ عبدِ اللّه

استَيقظَ عثمانُ من النَّومِ نَشِطا ، فاليومَ هو يومُ الجُمُعَةِ حيثُ الصَّلاةُ فى المسجدِ جماعَة ، والاستِمتاعُ بسَماعِ خُطبَةِ الجُمُعَةِ ؛ فلها قيمَةٌ عظيمَةٌ ، تنفعُ المُسلمينَ وتُناقِشُ أمورَ دينِهم ، وتَنفعُهُم فى حاضِرِهم ، وتُرشِدُهم إلىَ خَيرِ مُستقبَلِهم .

اغْتَسلَ عُثْمانُ ، فالاغْتِسالُ يومَ الجُمُعَةِ سنَّةٌ عن النَّبيِّ ـ صلَّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّم ـ وهو يُحبُّ أن يَقتدِىَ بسُنَّتِه .

فلَبِسَ أحسنَ ثيابه واستَعدَّ للخُروج . وسُرَّ والِدُ عُثمانَ لنَظافةِ عُثْمانَ وحُسنِ هندامِه ، وقالَ له :

ـ ما شاءَ اللّهُ يا عُثْمان . هلْ ستركَبُ معى السَّيارةَ فى الذَّهابِ إلى المَسجد ؟

أجابَه عُثمانُ مُعتَذِرا : لا ، بل سأذْهبُ إلى الـمَسجِدِ ماشِيا ، فقد قالَ الرَّسولُ ـ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم ـ « مَن تَطهَّرَ في بَيتِه ، ثمَّ مضَى إلَى بَيتٍ من بُيوتِ اللّهِ لِيَقضِيَ فَريضةً من فَرائِضِ الله ، كانَت خُطُواتُهُ الواحدَةُ تَحُطُّ خَطيئة ، والأُخرَى تَرفَعُ دَرجَة » .

قالَ والِدُه : إذَنْ لِنَذْهَبْ سَيراً على الأقدامِ مَعا .

وفي الطَّريقِ إلى الـمَسجدِ قالَ والدُ عُثمان :

ـ ذكَّرتَني يا عُثمانُ بجابِرِ بنِ عَبدِ الله ، أحَدِ صَحابَةِ الرَّسول ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسَلّم ـ يومَ غَزوَةِ الرّومِ عِندَما رفَضَ أن يركَبَ دابَّتَه ، وفضَّلَ أن يَسيرَ على قَدمَيْه لقَولِهِ ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم : « مَن اغْبَرَّتْ قدَماهُ في سَبيلِ الله ، حَرَّمَهُ اللّهُ على النّار » .

قالَ عُثمان : هَلْ لكَ أن تَحكِيَ لي قِصَّتَهُ يا أبي ، كما عَوَّدتَني أن تَقُصَّ علَيَّ قِصَصَ بعضِ الصَّحابَة ؟

أومأَ والِدُهُ بالإيجاب ، وقال :

ـ سأفعلُ إن شاءَ اللّه .

وبعدَ صَلاةِ الـجُمُعة ، ورجوعِهما إلى البَيت ، جلَـسَ عُثمانُ أمامَ والِدِه ، يَستَمعُ إلى سيرةِ جابرِ بنِ عَبدِ اللّه .

قالَ والِدُه : نَشأَ جـابرُ بـنُ عَبـدِ اللّـهِ فـى الـمَدينَة ، وكانَ فـى الـمَدينَةِ آنَـذاكَ مُصعَـبُ بـنُ عُمَـيْر ، سَـفيراً للنَّبىِّ مُحمَّد ـ صلّى اللّهُ عليهِ وسَلّم ـ يَدعو النَّـاسَ إلى الإسْلاَم ، ويُعلِّمُهـم مَبادِئَـه ، ويُفقِّهُهُـم فـى تَعاليمِـه . ونجحَ مُصعَبٌ فى الـمُهِمَّةِ الّتى وُكِلتْ إلَيه ، فأَسلَمَ على يَدِهِ كَثيرٌ مـن أهـلِ الـمَدينَة ، وكـانوا جَميعـاً يتلهَّفـونَ لِليَومِ الّذى يَلقَوْنَ فيهِ الرَّسول ـ صلّى اللّهُ عليـه وسَـلّم ـ فيُعلِنونَ إسْلامَهُم بينَ يَدَيْه .

*   *   *

خرجَ أهلُ المَدينَةِ ـ الأَنْصارُ فيما بَعد ـ في رَكبٍ جَليل ، وساروا صَوْبَ مكّة ، وكانَ ضِمنَ هذا الرَّكبِ عَبدُ اللّهِ بنُ عَمْرو الخزرَجيّ ، وقدِ اصْطَحبَ معَهُ ابنَهُ جابر ـ وكانَ لم يبلُغ الحُلمَ بعد ـ وكانَ لجابرٍ تِسعُ أخواتٍ من البَنات ، فلم يَكنْ للِشّيخِ عَبدِ اللّه بنِ عَمْرو الخزرَجيِّ ولدٌ ذكَرٌ غيرُ جابر .

وما إنْ رأى جابرٌ الرَّسولَ ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ حتّى بُهِرَ بإشْراقِ وَجهِه ، وسَماحَتِهِ وصِدْقِهِ وحُسنِ خُلُقِه ، فسَرَى في وِجْدانِهِ نورُ الإيمانِ به ، واسْتَقَرَّ في قَلبِهِ حُبُّه ، حتّى أصْبحَتْ صورَتُهُ لا تُفارِقُ خَيالَهُ أبدا .

* * *

وعندَما هاجَرَ ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ إلى المَدينَة ، لَزِمَهُ جابرُ بنُ عَبدِ اللّه ، فتعَلّمَ منه الكَثير ، وقد كانَ من أنجَبِ مَن حَفِظوا القُرآنَ الكَريم ، وتَفقّهوا في الدّين . وكانَ كذلِك

من أكثرِ الصَّحابَةِ حِفظاً للحَديث ، حتّى إنّه روَى وحْدَه ، ألفاً وخمسَمائةٍ وأربَعينَ حَديثاً ، حَفِظَها عن النّبيّ ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ ورواها للْمُسلِمينَ من بَعدِه .

وقد مدَّ اللّهُ في عُمرِ جابر ، حتّى نيَّفَ على المِائةِ عام ، قضاها كُلَّها في العِلمِ والعِبادَةِ والجهادِ في سَبيلِ اللّه ، والحِرصِ على فِعلِ كُلِّ ما يُقرِّبُهُ منَ الجَنّة ، ويُبعِدُهُ عنِ النّار .

قالَ عثمان : لقَدْ صَدقَ عَليهِ المَثَلُ الّذي يَقول : العِلمُ في الصِّغَر ، كالنّقشِ على الحَجَر . فقد تَفتَّحَ قلبُهُ للإسْلامِ منذُ نعومَةِ أظفارِه ، فكانَ كالصَّفْحةِ البيْضاء الّتي خطَّ عَليها الإسْلامُ نورَ العِلمِ والمَعرِفَة ، ليَكونَ مَصدَرَ إشعاعٍ لأجْيالٍ كَثيرَةٍ من بَعدِه .

قال والِدُه : ولم يَشتَرِكْ جابرٌ في غَزوتَيْ بَدرٍ وأُحُدٍ لصِغَرِ سِنّه ، وقد مَنعَهُ عنِ الاشْتِراكِ فيهما سَببٌ آخَر ،

هو أنَّ أباهُ كـانَ قـد أمَرَه أن يَبْقَى مـعَ أخَواتِه البَنـاتِ التّسْع ، فلم يكنْ لهنَّ أحَدٌ سِواه ، يَقومُ على أمرِهِنّ .

ولمّا كانَتْ ليلَةُ غَزْوَةِ أحُـد ، دَعـاهُ أبـوهُ الشّـيخُ عَبـدُ اللّهِ بنُ عَمْرو الخزرَجيّ ، وقالَ له : إنّي لأراني مَقْتـولاً مع أوّلِ من يُقتَلُ من أصْحابِ الرّسول ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ وإنّي واللّهِ ما أدَعُ أحَـداً أعزَّ علَيَّ مِنكَ بَعدَ رَسولِ اللّه ـ صلّى اللّهُ عليـه وسَلّم ـ وإنَّ علَيَّ دَيْناً فاقْضِ دَيْني ، وارْحَم أخَواتِكَ ، واسْتَوصِ بهِنَّ خَيْراً .

وصدَق ما توقّعَ عبدُ اللّهِ والِدُ جابِر ، فقد كـانَ أوّلَ شُـهَداءِ غَزوَةِ أُحُد ، و حينَ بَكاهُ جابرٌ قالَ ـ صلّى اللّهُ عليـه وسَلّم ـ « ابْكوه ـ أولا تَبكوه ، فإن المَلائكَةَ لَتظِلُّهُ بأجْنِحَتِها » .

ولَقِيَ الرّسول ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ جـابِراً يَومـاً فسأَلَه : يا جابِرُ ، ما لي أراكَ مُنكسِراً مُهْتَماً ؟

فأخْـبرَهُ جـابِرٌ أنَّ والِـدَهُ تَـركَ وراءَهُ عِيـالاً كثـيرين ، ودَيْناً يصْعُبُ عَليهِ قَضاؤه .

فسرَّى عنه الرَّسولُ ـــ صلَّى اللّهُ عليـه وسَلَّم ـــ ، وقال : إنَّ اللّهَ أحيا أباكَ وكلَّمَهُ كِفاحاً ـ أى مُواجَهَة ، وما كلَّمَ اللّهُ أحَداً قَطُّ إلاَّ مِن وَراءِ حِجاب ، فقالَ لَـهُ : يا عَبْدى ، سَلْنى أُعْطِك . فرَدَّ عليه قال : يـا رَبِّ أسـألكَ أن ترُدَّنى إلىَ الدُّنْيا ، لأُقتَلَ فى سَبيلِكَ مرَّةً ثانِيَـة . فقـالَ لَه : « إنَّه قد سَبَق القَولُ مِنّى ، أنَّهُم إلَيها لا يُرجَعون » . فقال : « يا رَبِّ ، أبلغْ مَن وَرائى بِما أُعطيتُ مـن نِعمـة » . فأنزلَ اللّهُ تَعالى : ﴿ ولا تـحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتِلوا فى سَـبيلِ اللّهِ أمْواتا ، بل أَحياءٌ عنـدَ ربِّهـم يُرزَقـون ، فَرِحـينَ بمـا آتاهُمُ اللّهُ من فَضلِه ، ويَستَبشِرونَ بالَّذين لم يلحَقوا بِهِم من خَلفِهِم ألاَّ خَوفٌ عَليهِم ولا هم يَـحْزَنون ﴾ .

ابتسمَ إسماعيلُ وقال : يا لَهُ من فَضلٍ عَظيمٍ لجابرٍ وأبيه ، أن يُنزِّلَ اللّهُ فيهما قُرآنا ، فهَنيئاً لعَبدِ اللّهِ بنِ عَمروٍ الخَزرَجيِّ بالجَنّة . ويا لَها من بُشرَى لجابرِ بنِ عَبدِ اللّه ، إنَّ اللّهَ لن يُضيِّعَهُ هو وأخَواتِه التِّسعَ من بَعد والدِه .

قالَ أبوه : هَذا صَحيحٌ يا وَلَدى ، فقد سَرَتْ كلِماتُ الرَّسول ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ والآياتُ المبارَكاتُ مَسْرَى السِّحرِ فى جابر ، فأزاحَتْ عنهُ الهمَّ والكَرب .

وصَحِبَهُ الرَّسولُ ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ إلَى بَيدَرِ التّمر ، حيثُ جمعَ جابرٌ تَمرَه ـ وطلبَ منه أن يَدْعُوَ الدّائنين ، وبِبَركَةِ بسمِ اللّهِ ، وبفَضلِ اللّهِ تَعالَى ، دفعَ ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ لهم دَينَهُم من تَمرِ تلكَ السَّنَة ، حتى وَفّى الدَّينَ كلّه . ولِشِدَّةِ عَجبِ جابر ، أنّه نظرَ إلى البَيْدَرِ فوَجدَهُ مملوءًا كما كانْ ، كأنّما لم تَنقُص مِنهُ تَمرَةٌ واحِدَة .

قالَ إسْماعيلُ مُتعَجِّباً : أحقًّا هذا يا أبى ؟

قالَ والِدُه : ولِـمَ العَجَـبُ يـا إسْـماعيل ؟ ألَـمْ تَتنَزَّلْ الآياتُ ﴿ ألاَ خَوفٌ عليهِم ولا هُم يَحزَنـون ؟ ﴾. إنّهـا البَركَةُ يا وَلَدى . ولعِلمِـكَ فقـدْ حَـدثَ مَوقِـفٌ مُشـابِهٌ لِهَذا يَومَ غَزوَةِ الـخَندَق .

قالَ إسْماعيلُ مُتَعَجِّلاً والِـدَه : مـا الَّـذى حـدَثَ يـومَ الخَندَقِ يا أبى ؟ قُصَّ عَلىَّ ...

قـالَ والِـدُه : تَعلَـمُ يـا إسْمـاعيلُ بـالطَّبع ، قِصَّـةَ حَفـرِ الخَندَق ، وما عاناهُ المُسلِمونَ فى أثنـاءِ حَفـرِهِ مـن تَعـبٍ وجـوع .ورَغْـمَ ذلـك كـانوا يُـؤدّونَ عَملَهُـم راضِـينَ مُستَبشِرينَ بنَصر اللّه . ورأى جابرٌ الرَّسولَ ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ يعْمَلُ معَهُم ويَحمِلُ الحِجارة ، وقـد ربَـطَ حَجَرًا على بَطنِهِ من شِـدَّةِ الجـوع ، فقـد مضَـى عَليهـم ثَلاثَةُ أيّامٍ لم يَذوقوا خِلالَها شَـيئاً مـن الطَّعـام . فاسْـتأذنَ جابِرٌ لبَعضِ الوَقـت ، وعندمَـا بلـغَ بيْتَـهُ قـالَ لزَوجَتِـه :

رأيتُ برَسولِ اللّه ـ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّم ـ من مَرارَةِ الجوعِ ما لا يَصبِرُ عَليهِ أحَد ، فهل عِندَكِ من شَيء ؟

قالت : عِندى قليلٌ من الشّعير ، وشاةٌ صَغيرَة .

فذبَح جابرٌ الشّاة ، وطحَنَ الشّعير ، وعِندما بَدأَ الطَّعامُ يَنضَج ، ذهبَ لرَسولِ اللّه ـ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّم ـ وقال : طُعَيِّمٌ صَنعناهُ لكَ يا نبِيَّ اللّه ، فقُمْ أنتَ ورَجلٌ أو رَجُلانِ مَعَك .

فقالَ ـ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّم ـ : كَم هو ؟

فلمّا عَلِمَ بمِقدارِ الطّعام ، قال : يا أهلَ الخَندَق ، إنَّ جابراً صنعَ لكُم طَعاماً فهَلُمّوا إلَيه .

وقَالَ لجابر : اِمضِ إلى زَوجَتِكَ وقلْ لَها : لا تُنزِلى قِدرَكِ عنِ النّار ، ولا تَخبِزى عَجينَكِ حتىَّ أجىء .

واهتَمَّ جابرٌ بأنَّ ما عِنادَهُ من الطّعام ، لا يكفى سِوَى بِضعةِ أشخاص ، فما بالُكَ بأهْلِ الخَنْدقِ جَميعاً ؟

قال إسْماعيل : حقًا إنّه مَوقفٌ حَرِج .

قال وَالِدُه : لا حَرَجَ إن شاءَ اللّه ، فكما حلّتِ البَرَكَةُ فى التّمر ، وقضَى به الرّسولُ ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ ديْنَ عبدِ اللّه ، كذلِكَ حلّتِ البَرَكةُ بطَعامِ جابر ، فغرَفَ ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ وأطْعَمَ أهلَ الخَندَقِ جَميعاً حتى شَبعوا ، ومازالت القِدرُ مَملوءةً كما هىَ ، ومازالَ العَجينُ يُخبَزُ كما هو .

ثُمَّ قالَ ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ لزَوجَة جابِر : كُلى وأَهْدى .

فأكلَتْ وجَعلتْ تُهدى طَوالَ ذلكَ اليَوْم .

قالَ إسْماعيل : لابُدّ أنّ مالَه كان حَلالاً فَبارَكَ اللّهُ فيه .

قال والِدُه : وهلْ فى ذلك شكّ ؟ إن صحابَةَ الرّسولِ ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ إذا ما شَكّوا فى وُجودِ جُزءٍ واحدٍ حرامٍ فى مالِهم أو فى طَعامِهم ، وتسعةٍ وتسعينَ

جزءاً حَلال ، تركوا مـالَهم أو طعـامَهم كلّـه خوفـاً مـن الجزءِ الحرام .

*　　*　　*

ونعودُ إلى جهادِ جابرٍ ، لنَرى أنّه لم تفُتْه غَزوةٌ واحِـدةٌ منذ وَفاةِ والِدِه ، فاشتركَ فى غَزوتَـىْ بَنـى قُريظَـةَ وبَنـى الـمُصطلق ، وشهِدَ صُلْحَ الـحُديبِيَة ، وبايَعَ الرَّسـولَ ـ صلّى اللّهُ عليه وسلّم ـ تحتَ الشجرةِ فى بَيْعةِ الرِّضوان ، واشترك فى فتحِ خَيْبَر .

وفى العام السّـابعِ للهِجـرَة ، اشْـتَرَكَ فـى غَـزوَةِ ذاتِ الرِّقاع ، وهى الغزوةُ التى أدمتْ قَدمَى الرَّسولِ ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلْم ـ وأصحابِه من طـول الـمَسافَةِ وكَـثرةِ الـمَشْى ، فربطوا أقدامَهُـم بقِطَـعٍ مـن القُمـاش ، وحـينَ وصلوا إلى مِنطَقةٍ بها أشْـجار ، جلَـسَ كـلٌّ منهـم تحـتَ شَجرةٍ ليَستريح ، فجاءَ رجلٌ من الـمُشركينَ فاخْتَرطَ ـ

اختَطفَ ـ سَيفَ الرَّسولِ ـ صلَّى اللّهُ عليـه وسَـلّم ـ ، فقال : أتخـافُنى يـا مُحمَّـد ؟ قـال : لا . فقـالَ الرَّجُـل : فمن يـمنَعُك منّى ؟

قال ـ صلَّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ : اللّه .

فمكثَ الرَّجلُ لا يَستطيع أن يتحرَّكَ من مَكانِه .

وعفا عنه ـ صلَّى اللّهُ عليه وسَلَّم .

ابتسم إسماعيلُ سُرورا ، فقال والِدُه : إنها الثّقةُ باللّـهِ يا ولدى .

واشترَكَ جابرٌ بعد وفاةِ الرَّسـول ـــ صلَّـى اللّـهُ عليـه وسَلَّم ـ فى حُروب الرِّدة ، كما خـرجَ غازيـاً إلى بـلاد الرّوم تحتَ قِيادَة مالكِ بن عبدِ اللّهِ الـخَثْعَمِىّ .

وعندمَا رآه مالكٌ ماشِياً ومعـه بغـلٌ يـُمْسِكُ بزمامِـه ويَقودُه ، قالَ له : لِم لا تَركبُ يا جابر ، وقد يسَّر اللّـهُ لك ظهراً يحملُك ؟

قالَ جابر : يَمنَعُني قولُ الرَّسول ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ « من اغْبرَّتْ قَدماهُ في سَبيلِ اللّه ، حرَّمه اللّه على النّار » .

وما أنْ سَمِع الجَيشُ قولَ جابر ، إلاّ ونزلَ الجميعُ عن دَوابِّهم ، كلٌّ مِنهم يُريدُ أن يَفوزَ بِهذا الأجر . فما رُئِيَ جيشٌ أكثرَ مُشاةً من ذلك الجَيش .

* * *

وكما قلت لك يا إسْماعيل ، فإنّ جابراً تُوفّيَ وقد نَيَّف على المِائةِ سنَة ، قضاها كلَّها في سَبيلِ اللّه .

قالَ إسْماعيل : شُكراً لك يا أبي على قِصَّتِك ، فهي جِدُّ شائقَة ، ومليئَةٌ بالعِظاتِ والعبَر . وإنَّ سيرَةَ أصْحابِ الرَّسول ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ لا يُشبَعُ منها أبَداً .

قالَ والِدُه : صدَقَ ـ صلّى اللّهُ عليه وسَلّم ـ حين قال : « أصْحابي كالنُّجوم ، بأيِّهمُ اقتَدَيتُم اهْتَديتُم » .